قصَّة أب[1]

حدَّثني المسكينُ فيما حدَّث ، وهو يصف ما نزل به ، قال :

رأيتُ النَّاسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، فَنَسَأ بالولَدِ في آثارهم ، ومدَّ بالنَّسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضمَّ به إلى قلوبهم قلوباً ، وملأ أعينَهم من ذلك بما تَقَرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانت لم تجد ، ثم وَجَدت ، فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوَّةَ ؛ التي تُرجِعُهم أطفالاً مثلَهم في كلِّ ما يسرُّهم ، فيكبَر الفرَحُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظُم الأملُ في أشيائهم وإن كان هو عن شيءٍ حقيرٍ ، لا يُؤْبَه له .

وتلك حقيقةٌ من حقائق السَّعادة لا أسْمَى ، ولا أعظمَ منها إلا الحقيقةُ الأخرى ! وهي القوَّةُ ؛ الَّتي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من الحبِّ ، والرَّحمة ، وجمالِ العاطفةِ ، بسحْرٍ من ابتسامةِ طفلٍ ، أو طفلةٍ ، أو بكلمةٍ منهما ، أو حركةٍ، على حينٍ لا يتحوَّلُ مثلَ ذلك ، ولا قريباً منه بمال الدُّنيا ، ولا بِمُلكِ الدُّنيا .

رأيتُ النَّاسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنَّه ابتلاني بأن أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجلٍ ملك داراً يستمتعُ بها ، فتمنَّى أن يُشْرِعَ[2] في جانبٍ منها غرفة يُزَخرِفها ، فلمَّا تمَّ له ذلك ، وبلغ المقْتَرَحَ ؛ انهدمت الدَّارُ ، وبقيت الغرفة قائمةً !

عَمْرَكَ اللهَ ! أيشعرُ هذا الرَّجلُ في نكبته بالغرفة أم بالدَّار ؟ وهل تراه زاد أو نَقص ؟ ويا ليتهما بيتٌ ، وغرفةٌ من بيتٍ ! فإنَّ الحجارةَ تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن مَن ذا يُحيِي الزَّوجةَ بعد أن وضعت بِكرَها الأوَّلَ والآخِرِ !

إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ ، وكأنَّما أُخرِجتْ من تحت الرَّدمِ ؛ إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدِمٍ ، وهل فرقٌ بين هذا ، وبين أن تكونَ أمُّها قد ولدتها في الصَّحراء ، ثُمَّ

---

(١) هو الصديق الأديب عبد الله عمار . وانظر : «عمله في الرسالة» من كتاب (حياة الرافعي) . (س) .

(٢) أي : يفتح غرفةً إلى الشارع . (ع) .

أُكرِهتْ أن تدعَها وحدها في ذلك القَفرِ تصرخُ ، وتبكي ؟ فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أوّلَ ما انقطعتْ من حنانِ الأمِّ ، ورحمتها .

طفلةٌ وُلدت صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النَّوْح والنَّدْب على أمِّها .

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر !

صرخةٌ ترتعِدُ ، كأنَّ المسكينةَ شعرتْ أنَّ الدُّنيا خاليةٌ من الصَّدر الذي يُدفئها !

صرخةٌ تتردَّد في ضَرَاعةٍ ، كأنَّها جملةٌ مُرَكَّبَةٌ من هذه الكلمات : « يا ربِّ ارحمني من حياةٍ بلا أم ! » .

* * *

قال المسكين وهو يبكي امرأتَه :

ولما ضَرَبها المخاضُ ، ضاعفتْ قوَّتَها من شعورها أنَّها ستكون بعد قليلٍ مضاعَفَةً بمولودها ، وستكون روحين ، لا روحاً واحدةً ، وتلد لي الحياةَ والحبَّ الإلهيَّ معاً ، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيلُ أن تأتي الرَّجلَ إلا من زوجه . كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً ، وشدَّ منها ؛ ولكن ما أسرعَ ما تبيَّنَت أنَّه الموتُ ! إذ عُضِّلتْ[1] ، وعَسُرَ خروج مولودِها .

وجاءها الجراحيُّ بمبْضَعِه ، وكأنَّها رأته ذابحاً ، لا طبيباً ، فجعلت تعبِّر بعينيها ؛ إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لُغةِ هاتين العينين .

كانت بنظرةٍ تبكي عَلَيَّ ، وعلى بؤسي ، وبأخرى تبكي على بؤسِ مولودها وشقائه ؛ وبنظرةٍ تُودِّعني ، وبأخرى تدعو الله لي جزاءَ ما أحسنتُ إليها ؛ وبنظرةٍ تتوجَّعُ لنفسها ، وبأخرى تتألَّم من أنَّها تراني أكادُ أُجَنُّ .

نظرات نظرات . . .

يا إلهي ! لقد خُيِّل إليَّ : أنَّ ملَكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرآةً تُحيط به ، فأنا أراه موتاً متعدِّداً ، لا موتاً واحداً ، وكلُّ نظرةٍ من عينيْ زوجتي إليَّ كانت منها هي نظرةً ، وكانت عندي أنا مرآةَ الرُّوح للرُّوح .

ولكنَّها لم تنس أنَّها تموت لوضْع مولودها ، وأنَّ هذه الآلامَ الدَّمويَّة الذَّابحة

(١) « عضلت » : أعضل الأمرُ : اشتدَّ ، واستغلق ، والداءُ الأطباءَ : أعجزهم أن يداووه .

هي الوسيلةُ ؛ لأن تتركَ لي بقيَّةً حيَّةً منها ؛ فيا للرَّحمة ، والحنان ، والحب ! لقد ابتسمت لي وهي تموت ، وهي تلد ، وهي تُذبَح !

* * *

ليست رحمةُ المرأةِ المحبَّةِ خيالاً إلا إذا كانت حرارةُ الشَّمسِ الَّتي تُحيي الدُّنيا خيالاً أيضاً ؛ إنَّ هذا القلبَ النّسويَّ المستقرَّ فوق أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً ، راضيةً ، فرِحةً بآلامها ، وتَغذوه ، وتُقاسمه حياةَ نفسها ـ هذا القلب يحملُ الحبَّ أيضاً صابراً ، راضياً ، فرِحاً بآلامه ، ويغذوه ، ويقاسمه حياةَ نفسه .

وللرَّحمة الإلهيَّةِ أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفةٍ ، فالشَّمسُ تدلُّ عليها بالضَّوء ؛ الذي تَطْعَمُهُ الحياة ، والهواء يدلُّ عليها بالضَّوء ؛ الذي تتنفَّسه الحياة ، والماء يدلُّ عليها بالضَّوء ؛ الذي تَشربه الحياة ، وهكذا إلى أن يأتيَ في الآخر قلبُ المرأة فيدلَّ على رحمة الله بالحبِّ ؛ الذي تقومُ به الحياة .

ابتسامةُ الحبِّ غالَبت زفراتِ الموت ؛ التي تَعْتَلِجُ[1] من تحتِها حتَّى غلبتْها ، وأعادت الحياةَ لحظةً إلى وجه زوجتي ؛ لأراها آخرَ ما أراها في صورة المُحِبَّة لي ، فكان كلُّ جمالِ نفسِها منتشِراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحُها ، وعواطفُها ، تودِّعني وَداعاً حزيناً متبسماً يتكلَّم ؛ يتكلَّمُ بعجزه عن الكلام .

ابتسامةٌ لا ريب : أنَّ فيها أشياءَ ليست من جمال هذه الدُّنيا ، ولا من حقائِقها ؛ فكأنَّما التمعتْ بأشعةٍ من الخُلد تَرِفُّ رفيفَها على وجه الحبيب ؛ ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ : أنَّ حبَّه أقوى من الموت .

* * *

قال المسكين : ونثَرَ الطَّبيبُ ذا بطْنها ، فكانت طفلةً ، وما كانت زوجتي تقترح أن يكونَ الجنينُ غيرَها ، بل كانت مستيقِنةً : أنَّها تضعها أنثى ، وصَنَعتْ لها ثيابَها ، ووشَّتْها بزينة الأنوثة ، وعرضتْ أسماءَ البناتِ ، فاختارت اسمَها أيضاً ، وكنت أكره ذلك منها ، وأريدُ ولداً لا بنتاً ، فكانت تُغايظني بعملها ، وإصرارِها غيظ دُعابةٍ ، لا غيظَ جَفَاء .

---

(١) « تعتلج » : تضطرب .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدةَ الحَمْل ، ولا تتكلَّم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ؛ فلمَّا قضى الله فيها قضاءَه ، علمت : أن ذلك أمرٌ من أمر الرُّوحِ ، فكان الإلهامُ فيها : أنَّها على بابِ قبرها ، وأنَّها لن ترى طفلتَها ، ولن تعيشَ لها ، فعاشت أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها : تضمُّ ثيابَها إلى صدرها ، وتحملُها على يدها ، وتُناغيها ، وتقبِّلها ، وتأخذها من الوهْم وتردُّها إليه ؛ وكذلك نَعِمَتِ المسكينةُ بالمسكينة !

للهِ يا معجزةَ الرَّحمة ! يا نفسَ الأم !

* * *

ولما قيل : ماتت . جعل يكلِّمني المتكلمُ ، ولا أعقِل ؛ فإنَّ الكلمةَ التي تأتي بالمصيبة المتوقَّعَةِ طال ارتقابُها ، لا تأتي بمعانٍ لغويَّةٍ ، كغيرها من الكلام ، بل بأسلحةٍ تَضربُ في النَّفس ، وفي العقل ، وتُثْخِنُهما جِراحاً ، وفتكاً .

وجعلني موتُها كأنِّي ميِّتٌ يحمل نفسَه ، ما حولَه إلا المشيِّعون ؛ وأحسست كأنَّ قوةً أخذتْ بإحدى رجليَّ ، فوضعتها في الآخرة ، وتركت الثانيةَ في الدُّنيا ، ولَحِقَنِي من الجزع ما اللهُ عالمٌ به ، وَوجدْتُ أَحْرَقَ الوَجْد ، وبكيتُ أحرَّ البكاء ؛ وجعلَتْ أفكاري تنحدِرُ من رأسي إلى حلقي ، فأختنقُ بها ، ثم لا يُنفِّسُ عني إلا الدَّمع ، كأنَّ أعضائي اختلَّتْ ممَّا ضغَطَني من الحزن ، فأنا أتنفَّسُ برِئتيَّ وعينيَّ .

بموتها شعرتُ بها ؛ ولعلَّه من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذَّة الحبِّ كاملةً إلا في آلامِ الحبِّ وحدها ، وكانت في حياتها تضع من روحها في سروري ، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة : يجد مُحبُّها في كلِّ سرورٍ لمحاتٍ روحانيَّةٍ ، وكذلك فعلتْ بعد موتها ، فجعلتْ روحَها في أحزاني ؛ ولولا أنَّ روحَها في أحزاني ؛ لقتلتْني المصيبة .

وكنت أذْلِفُ وراء النَّعشِ وقد بَطَل في نفسي الشُّعورُ بالدُّنيا ، وكان النَّاسُ يمشُون حولي بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنَّهم سائرون ، كما يذهبون إلى كلِّ مكان ؛ أما أنا فكنتُ أمشي بما فيَّ من الحبِّ منكسِراً ، منْخذِلاً ، متَضَعْضِعاً ؛ لأني وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق .

وثَقُلَ النَّاسُ على قلبي ، ورجع كلُّ أمرِهم عندي إلى العَيب ، والنقيصة ؛ إذ كان لي عقلٌ طارئٌ من الحالة التي أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم ، وكنت وحدي المُصَابَ بينهم ، فكنتُ وحدي بينهم العاقل .

وشَتَّانَ ما نحن ! وشتَّان !

ولما رأيتُ قبرَها ابتدرتْ عيناي تنظران بالدُّموع ، لا بالنظَر ، ورأيتُ التُّرابَ كأنَّه غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السُّحُبِ الدَّاكنةِ تتهيَّأ في سمائها تحت الظَّلام ؛ لتُخْفِيَ كوكباً من الكواكب ؛ وظهر لي القبرُ كأنَّه فَمُ الأرضِ ، يخاطبُ الإنسانَ بحزمٍ صارمٍ ، يخاطبُ الفقيرَ والغنيَّ ، والضعيفَ والقويَّ ، والملوكَ والصَّعاليك : « أنَّ كلَّ قوةٍ تُنزَع هنا » .

* * *

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ في أيَّام المطر رائحةَ النَّسيم المبتلِّ بالماء ، كنتُ أسْتَرْوِحُ في رَجْعتي إلى الدَّار رائحةَ نسيمٍ مبتلٍّ بالدُّموع ، وحضَرْتُ المأتمَ ، وعزَّاني النَّاسُ ، فكنت فيهم كالمأسور بينهم : لا أتمنَّى إلا أن يَدَعوني ، فأنجوَ على وجهي ، ولا أرى إلا أنَّهم يجرِّعونني الوجودَ غُصَصاً ، كما تجرَّعتُ الفقدَ غُصَّةً غُصَّةً ؛ إلى أن تفرقوا مع سواد الليل ، فانكفأتُ إلى الدَّار ، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّر ولمسه الموتُ لَمْسَةً ، وإذا الدَّارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء : ما ثَمَّ شيءٌ إلا لِيطالِعَني بأنَّ مسرَّاتي قد ماتت !

ولاح الصُّبحُ لعينيَّ السَّاهرتين صبحاً فاتراً ، تبيَّنتُ فيه الخجل ، كأنَّه يقول : « لم أطلُعْ لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبتُ أمشي في دنيا هي الكآبةُ المضيئةُ سَخِرتِ الأقدارُ منها بإظهارها في هذا الضَّوء مَظهرَ وجهِ العجوزِ المتصابيةِ في زينةٍ لا تزيدها إلا قبحاً !

ومضيتُ على وجهي لا غايةَ لي ، أضرِبُ في كلِّ جهةٍ كأنَّما أريد أن أهربَ من نفسي ! وما خطر لي قطُّ أنِّي في يومٍ جديدٍ ، بل كنتُ عند نفسي لا أزالُ أمس ، وتغيَّر عندي الزَّمانُ ، والمكان : فأحدُهما ساعةُ موتٍ ، لا تترك ما فيها ، والآخرُ قبرُ ميِّتةٍ ، لا يردُّ ما فيه .

آه من الوقت الذي ينتهي فيه الموجودُ ؛ ليعذِّبَنا بالتَّذكُّرِ : أنَّه كان موجوداً !

* * *

قال المسكين : ثُمَّ أعادتني قدمايَ إلى البيت ؛ لأرى طفلتي ـ وما كنت رأيتها ـ ولقد كانت ولادتُها أوَّلَ الحياةِ لها ، وأوَّلَ الحياة لي أيضاً ؛ إذ لولاها

لانتحرتُ غيرَ شكٍّ .

يا ويلَتا ! لم تلتقِ عيني بعينِ الطِّفلة حتَّى انفجرتْ تبكي . أتبكين لي يا ابنتي ! أم عليَّ ؟

أَهذا بكاؤكِ أيَّتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبك اليتيم ؟

أصوتُكِ أنتِ ، أم هي روحُ أمِّكِ تصرخُ ترثي لي ، وتتوجَّعُ لفرْطِ ما قاسيت !

يا ابنتي ! إنَّما أنتِ الحقيقةُ الصَّغيرةُ ؛ التي خرجتْ لي من كلِّ تلك الخيالات الشِّعرية الجميلة ، خيالاتِ الأيَّام السَّعيدةِ التي مرَّت !

يُخلَق المواليدُ من اللَّحم ، والدَّم ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة ! خُلقتِ من اللَّحم ، والدَّمِ ، والدُّموع !

بقيَّةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنَّكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟

مسكينةٌ ، مسكينة ! لو أنَّ نواميسَ العالم متغيرةٌ لشيءٍ ؛ لتغيَّرتْ من أجل بؤسِكِ ، فردَّت لك الأمُّ ؛ ولكنَّها لن تتغيَّر ، وما بكاؤنا ، وآلامُنا ، وتعاستُنا إلا تُراثُ الحياة في أجسامنا الأرضيَّة ، كلُّ ذلك طبيعةً ، ولكنَّ بقعةً أنظفُ من بقعةٍ ، وأراك يا ابنتي ! كالبيتِ الذي هُدِمَ أوَّلَ ما بُني يملؤه ترابُه !

لن تتغيَّر النَّواميس ، فلن تَجِدي عطفَ الأمِّ ، ولكنْ لن يتغيَّرَ قلبي أيضاً ، فلن تُحرمي عطفَ الأب .

وإذا صبر النَّاسُ على الحياة ؛ فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفِك ، وانقطاعِك سأعاني الصَّبرَ لك ، وأعاني الصَّبرَ لي ، وأعاني الصبرَ عن أمِّك ، سأصبرُ على الصَّبر نفسه !

يا ابنتي ! يا ابنتي ! لماذا وضعتْكِ الأقدارُ من هذه الحياة في النَّاحية الَّتي ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمِّكِ ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامه ؟

* * *

قال المسكين : وهكذا كُتِبْتُ من أهل البؤس ، والهمِّ ، فلم أتزوج إلا لتصنعَ لي حبيبتي دموعي ، ثمَّ لم تمت إلا بعد أن تركتْ لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً تصنَع لي دموعي !

* * *